سمات مشتركة بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة★

للدكتور : عبد العزيز صالح

لعلـه ما من شئ أكثر وجـوبا من أن تعقد المقارنات أو تعـقد الأواصر بين اللغة المصرية القديمة واللـغة العربية ، رغم شدة تبـاين أشـكال الكـتابة فـى نصوصهـما المألوفة . ولم تكن خطوط الكتابة هذه قد ابتـدعت فيـما هو معـروف إلا بعد نـشأة اللـغات بما يـصعب تقـديره من الأجـيال والقرون الكـثيرة وربما تغيـرت صورها من حين إلى آخـر ، بناءً على تعـاقب الأزمان والحضارات ورغبـة التنـويع والتطـويـر . أما أساسيات هاتين اللـغتين وقواعد النحو والنطق فيـهما ، فقلما تبدلت طـالما استمر التـواصل قـائمـا بين بـيئاتـها الـطبـيعـية وتكويناتها البشرية والحضارية .

وكثيراً مـا استشهدت بعـض البحوث اللـغـويـة الحـديـثة بـأعداد من مـفردات اللغتين : العربية والمصرية القديمة ؛ للدلالة على قرابة ما بينهـما ، مع تلمس تأثيرات الطـابع الـسامـى أو الطـابع الحـامى فـى نصوصهما القديمة ، وهو اتجاه حميد نسبياً ، ولكنه قاصر على الأقـل فى صوره اللفظية لـغيـاب دلالات الـنـحو ؛ ولأن ألـفـاظ الحضارة بخاصة قد تنتقل من بلد إلى آخر أو من شعب إلى آخر دون أن يواكبها ترابط لغوى أو جنسى يجمع بالضرورة بينهما .

وتضمنت المصادر المـصرية القديمة من ناحيتها .شواهد وقرائن عدة ؛ للتقارب بين هاتين اللغتين المصـرية والعربية ، وزاد من قيمـتها أنهـا لم تتوقـف عند حد احـتواء نصوصها على مـفردات سامية أو عاربة أو مستـعربة عتيـقة فحسـب ، وإنما تجاوزت حدود الألـفاظ إلـى ماهـو أهم مـنهـا ، وقدمت معها أصولاً لقواعد نحوية مشتركة

★ القى هذا البحث فى الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر ، يوم الأحد ٢٦ مـن شوال سنة ١٤١٣ هـ ، المـوافق ١٨ من أبريل سنة ١٩٩٣ م .

وهى الأكثر حجةً عما عداها فى مجال تأصيل اللغات . ومنذ أوائل الألف الثالث قبل ميلاد المسيح أى فيما تقدم العصر الحاضر بنحو خمسة آلاف عام على وجه التقريب ، دُوِّنت المتون المصرية القديمة بقواعد لغوية لايكاد بعضها - ولا نقول كلها - يختلف كثيراً عما قامت عليه بعض قواعد اللغة العربية ، حين اتضح بنيانها . وهو أمر يمكن أن ينهض قرينة على احتمال إرجاع تشكيل وتأصيل العناصر المتشابهة فى هاتين اللغتين إلى ما لايقل كثيرا عن ذلك الزمن السحيق . ولن ينقض هذا الاحتمال عدم وضوح تطبيقات هذه القواعد بالنسبة للمراحل العتيقة من اللغة العربية بخاصة ، وذلك تبعاً لغياب نصوصها ، ولعدم معرفة أهلها الأوائل بالكتابة أصلاً حينذاك .

وفى الوقت ذاته لن يعنى القول بهذا الاحتمال للصلة بين هاتين اللغتين افتراض وحدة لازمة بينهما ، أو اعتبارهما لغة واحدة ، لا ولاتبعية الواحدة منهما للأخرى أو اشتقاقها منها . وإنما هو ينم أساسا عن إمكان احتسابهما صنوين متقاربين انتسبا إلى أم لغوية قديمة ، أوجدة لغوية عتيقة ، تضمنت أرحامها جذوراً أولية وأساسيات توارثتها جماعاتها زمناً ما وأكمل كل شعب نصيبه منها بطريقته فى سياق تأصيل كيانه ، وطوّع فروع ميراثه إلى ما يوائم إيحاءات بيئته ومتطلبات حضارته ، وتطورات ثقافته ، أما الأم اللغوية تلك ، فيعبر عنها عادة باسم المجموعة السامية أو ما قبل العربية (وما قبل المصرية أيضا) . وأما الجدة العتيقة فيكنى عنها اصطلاحا بالعائلة السامية الحامية (أو العكس) . وتكاد كل منهما ، بأقسامها الصادرة عنها ، تقوم مقام كف اليد البشرية من حيث كونها أصلاً للأصابع المتفرعة منها وهى أصابع أيًا ما تفرد كل منها بوضعه وشكله يظل متصلا بها فى منبته ونسبه .

ومع هذه المقـدمات والتحفظـات التى آثرنا البـدء بها ، تجانس عدد لايسـتهان به من قواعـد التركيـب الأولية فى نـصوص هاتين اللغتين القديمـتين المصرية والعربية . وقد نشـرنا عن بعض مـعالمها فـى بحوث مـتفـرقة مـنـذ عام ١٩٦٢ مـــردودة إلـى مصادرها ومراجعها الـتفصيلية[1]. ويمكن ترتيب أهم خواصها المشتركة ، فيما يتعلق بقواعـــد اللغـــة المصرية القديمـة بخاصة فيما يلى :

١ - وجـود حـروف الحـاء والـعـين والقاف بـين حروفها ، وهـى من أصوات المجموعة السامية أساساً .

٢ - كتـابة الحـروف الساكـنة وشـبه اللينة فى كلمـاتها دون حروف الحركة التى تضمنتها .

٣ - شـيوع المصـــدر الـثلاثى بـين أفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها .

٤ - استـخدام الجمـلة الفـعليـة إلى جانب الحملة الاسمية كل فيما يناسبها .

٥ - إضافـة تاء التـأنيـث إلى نهـاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة ، واستخدام لفـظ "تا" كـاسم يشـار بـــه إلى المؤنـثة المفردة .

٦ - إلحاق الصـفة فيها بـالموصوف ، مع تماثلهما معاً ؛ جنساً وإفراداً وجمعاً .

٧ - إدراج صيغة المثنـى فيها ، وهى نادرة الاستعمال فى بقية اللغات .

٨ - تشابه ضمير المتكلم المطلق المفرد فى اللغـة المصرية القديمـة وهو "أنك" مع الضمير الأكدى فـى العراق وهو «أناكو» ، والضمير العبرى والمؤابى السامى فى جنوب الشام وهو « أنج » ، وأنـوكى ، وأنوخى» - واستعملـت الكاف ضميراً للمـتكلم فى بعض اللهجات اليمنية الحالية .

٩ - إلحـــاق نـون الجـمـع ، وواو الجمـاعة ، بـنهـايات الأفـعال والأسـماء المرتبطة بها .

١٠ - تشـابه ضمـير المتكـلم المطـلق الجمـع فى اللغـة العربـية ، حين تأكـيده بالأداة «إن» مـع مثيـله فى اللـغة المصـرية القديمة وهو «إنْن» .

١١ - تشـابه كـاف المخـاطـب المفرد مع الكـاف العربيـة والآرامية والجعـزّية ، وإلى حـد مـا مع الأكـدية السامية ، وهى « كا ، أوكو » ، فى حال المـضاف إليه ، وحال المعطى له .

١٢ - امتداد نـفس هذه الظـاهرة إلى حال الـفاعل المفـرد ، وهو ما أخـذت به بعـض اللهجـات العـربية القـديمة فى مثل « أتيكا » بمـعنى أتيتَ ، وعصـيكَ ، بدلا عن عصيت[٢] .

١٣ - إلحاق يـاء النسبـة وياء الملكـية للمتكلـم المفـرد العـربى مثـل نيوتى بمعنى مدينتـى ، وآختى أى مشرقى ، وسـختى بمعـنى قـروى وإن أشـبهت الياء المقصورة أو الجرة أحيانا . فى اللغة المصرية القديمة .

١٤ - استخدام الإضافـة المباشرة إلى جانب الإضافـة غير المباشرة ، واسـتعمال لام الإضافة مع قلبها نوناً .

١٥ - إضافة تـاء المخاطب المفـرد فى إحدى صيغ الـفعل الماضى ، وفيـما يقوم مقام صيغة الحال .

١٦ - تـأكـيد الخـبر أحـيانـا بـحـرف « إن » .

١٧ - اعتبار حرف النون حرفا أصيلا فى الضمير المتصل بالنـسبة للمتكلم الجمع فى حـالتى الـفاعل والمـضاف إليـه ، مع تغييرات طفيفة بين لهجة وأخرى .

١٨ - تأكيـد الجملة الاسـمية أحيـانا ببدئها بحرف « إن » .

١٩ - إضافة مـيم المكان ومـيم الأداة إلـى بعـض الأسـماء والأفـعال لـتـوليـد مسميات مخصصـة ، على غرار المتبع فى اللغة العربية .

٢٠ - استـخدام حرف المـيم ضـمن أدوات النـفى فيـهـا (وفى بـقية اللـغات السامية) .

٢١ - استخدام لفظ «مع» للمعية .

٢٢ - استخدام تمييز البعض من الكل فى مثـل "إقـر صبـعو" المصريين بمـعنى ماهر الأصابع .

٢٣ - اسـتخـدام لفـظ "سُوَ" تـارة وحرف السين تارة أخرى للتعبير عن ضمير

الغـائـب المفـرد المذكر ، وبمـا يقابل لـفظ "هو" وإلهـاء فى اللغة العـربية الشمـالية وبعض اللهجات المعينية اليمنية .

٢٤ - استـخدام لفـظ "سِىَ "أحيـانا وحــرف السين كذلـك فى التـعبير عــن ضـمــير الـغائـبـة المفـردة ، وما يـوازى لفظ "هِىَ "لاسـيما فى حالات المفـعول به والمفعول العائد والإضافة ، وهو ما أخذت بــه لهجـات معين وقتـبان وحضـر موت القديمـة وبعض اللهجـات اليمنيـة الدارجة المعـاصرة ، فيـما خـلا اسـتعمـال "سا" للغائبة عوضا عن سى .

وذلك علـى حين قابل الأكـديون فى العـراق هـذه الضمائر بـتغيير طفيف أحلوا بـه حـرف الشين محــل السـين فى مـثـل شُوَ ،وشِىَ ....

٢٥ - وعلى نفس النـسق كان ضمير الغائبين لدى المصريين هو "سن" بينما كان نظيره الأكدى العراقى هو "شن"،.. إلخ .

وزكت مـضامـين النصـوص المصـرية القـديمة هذه الأسـس الأوليـة المشتـركة أو المتجـانسة فيـما بينـها وبين اللـغة العربـية بمفـردات وفيرة مـن أسماء وأفـعال تشـابه أغلـبهـا لفظـا ومعـنى ، ولـيس لفـظا فحسـب ، فى كل من الـلغتين . ونـيفت أعدادها المرجحة على نـحو مائة وخمسين لفظا نم أقـدمها زمنا عن عـمق وجوده فى اللـغتين ، ودل أحـدثها زمـنا علـى الأثر اللغوى لاتصال التعامل البشرى والحضارى بين الشعبين .

ولعل من أكثر هذه الألفاظ دلالة على تقـارب أصول اللـغتين الألـفاظ المـتعلـقة بتعريف أجـزاء البدن ، وكانـت كلـماتها فيما يحتمل من أوليـات مانحتته جماعات البشر الأولى بطرائق نطقها المتعددة .ومنها فيمـا أوردته اللغـتان : ألفاظ عـين وشفة وأذن ويد وكف وإصبع ، وإلـى حدما لبّ ولسان . ،ذلك مع تحفظين ، وهما وجود قدر من تحـوير النطق والـترتيب لـلحروف الأساسـية بـين هـذه وبـين تـلك ، ثـم

استعمال أعداد من المترادفات الموازية لها في معانيها ، والمختلفة عنها في نطقها ، في كل لغة منهما على حدة.

ومن نماذج ما رجحنا فيه تماثل وتقارب أفعال وأسماء اللغتين من حيث الحروف الأساسية على أقل تقدير ، مع توقع تعرضها لقدر ما من ظواهر القلب والإبدال والإعلال أو التزيد أحيانا ، إلى جانب تعدد مترادفاتها في لهجات الفريقين :

أولا : أفعال : حسب وختم وخبّ وشدّ وشع وتم وتمم ونجر ونعى وخوى وكبكب وحبس (أى ألبس) وبصق وبصر ونسب وانساب ورقى وحطم وشمع (أى طرب) ، ثم وهى ووهن وفدق ووصى وخسئ وقاء وعنّ (أى طلب) ، ولمح وكمد وأبى (أى رغب) وعبى (أى افتخر) ووسع وعرك وصفا وصحن وبدش (أى تعب) ووخى وخدب (أى ذبح) ، وكذا زعق وعشق وحزن ونقم وبتح وبرق وبلج ووزن وبارك وقطف وطمس ووبخ أو وبص (أى وضح) وعبا (أى أضاء) وجنف (أى أنف) ، وما ماثل ذلك .

ثانيا : أسماء : جناح وعنزة وذئب وقمح وتمساح وصنو وسبى وطفل وقد ومسك (أى جلد لحيوان) وموت ومنامة ومنية وأثل وزمن ويمنة وواحة وست وثمان ومرقاة ونبر وبرّة (أى بذرة) وسين(أى طين) ، وكذا حمض ودقيق وزعقة وهمهمة ويم وبركة وعجلة ومنحة وبركة ومغارة ومخاضة وسيف وحصان وحرية ورمح وزيت ونبق وزيتون ورمان وكرم وصبى وقرر (أى ضفدع) وكعك وتابوت وقفا وسدرة وجار وقش وجص وثابر (أى زابر أو كاتب) . . . إلى آخره .

ولا ريب فى أن هذه المتشابهات قلة من كثرة أخرى قديمة اندثر أغلبها أو ندر استعمالها وانطوت ألفاظها فى بطون معاجم اللغة. وقد آثرنا الاكتفاء منها

بصيغها العربية مراعاة للتخفف من تفاصيل بعض الفوارق اليسيرة بينها وبين صيغها المصرية والتى يسع المتخصص أن يراجع حرفيتها فى بحثنا آنف الذكر ، ومع هذا يمكن أن نضيف فى مقابلها متشابهات نادرة أو شبه بائدة ، للتدليل على أن مثابرة البحث فى أمثالها قد تقدم المزيد من الإضافات المفيدة ، على شريطة تجنب الافتعال فيها . فقد عبرت النصوص المصرية القديمة عن الفأس الذى يستخدم فى الحرث باسم مر ، والمر فى لسان العرب هو المسحاة أو مقبضها ، وهو من المحراث ويعمل به فى الطين . وعبرت النصوص المصرية عن الرِجل والخطو بلفظ رد - وفى اللسان ترد «ردى» بمعنى مشى ، وردت الجارية أى حجلت أو تبخترت . وعبرت عن المشترى بلفظ مكارى وهو لفظ سامى قديم ، وعن التاجز بلفظ شوطى . واستخدمت بعض النصوص اليمنية القديمة فعل شاط وشوط بمعنى تاجر أيضا . وقالت ، أى النصوص المصرية ، حكن وحنك بمعنى مدح وقدم قربانا ، واستخدمتها بعض النصوص اليمنية أيضا للمعنى ذاته ، وتماثل لفظ مو المصرى مع موه وتصغيره موية فى بعض لغات العرب القديمة والمعاصرة أيضا ، بمعنى الماء ، حيث الهمزة فيه مبدلة من الهاء .

وعلى أية حال ، فلم تستهدف القرائن الكثيرة السابقة تدليلا على قرابة اللغة المصرية القديمة للجذور السامية أو العربية ، بقدرما استهدفت التنويه أساسًا بتواجد عدد واف من أصول قواعد اللغة العربية أو أشباهها ، ومفرداتها الفصحى أو أمثالها ، فى عصور أسبق زمنا بكثير من عصور تسجيلها بأيدى أهلها ، بل وأسبق زمنا كذلك من لغات من حاولوا أن يثيروا التساؤلات والشبهات حول تأصيلها . وهو ما زكته نصوص أخرى من أكد وبابل وآشور ومن إبلاوماري وأوجاريت وغيرها .

وقد تعمدنا فيما تقدم من هذا البحث أن نركز على المقارنة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغة العربية بخاصة دون ما جرى عليه أغلب المستشرقين من عقد المقارنات بينها وبين اللغة السامية بعامة واللغة العبرية بخاصة .

ولا بأس من تعقيب قصير على التسميات الشائعة عن "السامية الحامية " أو " الحامية – السامية " من حيث هى تسميات تجوزية جرى العرف على استخدامها دون أن يرجح العلم صحتها . فإلى جانب بعض رواياتها القديمة الغامضة رددتها البحوث المحدثة منذ عام ١٧٨١ م فى إثر المستشرق النمساوى أوجست لودفيج شلوتسر الذى اقتبسها فى كتاباته مما ذكرته بعض سلاسل الأنساب فى مثل الإصحاح العاشر من سفر التكوين عن مواليد بنى نوح ، والتمييز بين من اعتبرهم العبرانيون ساميين من نسل سام بن نوح وإليهم نسبوا أنفسهم ، وبين الحاميين من نسل حام بن نوح . وقد أوشكوا أن يجعلوهم أدنى منزلة منهم وأقرب إلى السمرة ، وشابههم فى ذلك إلى حد ما بنو يافث . وحين تُذكر قصص العهد القديم فى مثل هذا المقام يفرق فيها عادة بين ما تأكد تنزيله من وحى السماء ووجب التسليم به ، وبين ما وضعه الكتبة وأضافه الأحبار فى عصور متفاوتة ولم يسجل إلا بعد قرون من وفاة أصحابه وهو لهذا يستوجب التحفظ بشأنه وشأن ما تداخل فيه من الغرض والتزيد . ومن أجل هذا لم يتحرج بعض الباحثين ومنهم يهود ومسيحيون أنفسهم من التنبيه إلى أن سلاسل الجماعات والشعوب فى هذه القصص اقتصرت على بيان ما عرفه كاتبها من أسمائها وهو كاتب لم يعرف اسمه وتأثر فى تصنيفها بما حملت من العلاقات بينها وبين قومه ، وترتب على ذلك أن ضم إلى العبرانيين فى الجماعة السامية الأثيرة لديهم عددا من الجماعات والشعوب والقبائل القوية والصديقة لهم ، على حين نفى

الســامية عــن خصومهــم وعن الجمــاعات المستضــعفة فى عصره . وجرى عــلى مثل هـــذا الاتجـــاه عــدد آخــر من الأحــبــار والنسابين بــلغ من تحيزهم أن نفوا الــسامية عن الكنعــانيين والفينيقيين عــلى الرغم من أنهم من صــلب أصحاب اللغات الــسامية الأوائل ومن أهل الشام الأصيلين . وماكان ذلك الــتجــنى عــليــهم إلا لأنــهم عــادوا العـــبــرانيين وقـــاومــوا أطماعــهم فــباءوا بسخطهم .

وثــمة أمــر آخــر يتــصــل بــالمصــادر الإسلامية عــلى أقل تقدير ، وهــو المتواتر عن اعتــبار سام وحام ويــافث أبناء لــنوح علــيه السلام مــع تمييز الــواحد منهــم عن الآخر ، وهو خبر لم تقل بمثله آيات الذكر الحكيــم ، ولم يذكر الــقرآن الكريم لــنوح عليه السلام غير ولد واحد كان من المغرقين فى حياة أبيه (إلا إذا افتــرضنا احتمالاً أن نوحاً تــزوج وأنجب بعد انــحسار الطــوفان أبناءً آخرين) . وذلك مايعنى عدم ضرورة الالتزام بالرواية العبرية بشأنهم وإن لم ينفها تماما ، وأن الــفوارق الشعوبية التى وضعها العبرانيون فى سلاسل الأنساب هى فوارق مفتعلة لم يسبب ظواهرها من حيث اختلاف اللون واللغة غير الفوارق المناخية والظواهر البيئية وفوارق اللغات واللهجات .

وهكــذا احتفظ بــعض اللــيبيين عــلى المنــاطــق المــرتفعة بــبشرة بــيضاء وشــعور وعيون ملونة على الــرغم من اعتبارهم من أصحاب اللغات الحامية .

ولايقلل من أهمية هذا الدفع أن عددا من المؤلفات الإسلامية المــبكرة قد أحسنت الظــن بالإسرائيــليات وتوقــعت العلــم فى الروايات العبرية ولــهذا رددت بعض آرائها فى الأنساب دون تمحيص كاف .

وعلى أية حــال فبناء على أمــثال هذه الملابسات والتحفظات أوشك العلم الحديث أن يجعل تسميات السامية والحامية راجعــة فى الأكثــــر على الخــواص اللــغوية لا إلى التسميــات العرقية ، وإن لم ينفــها تماما أو يثبتها تماما .

وقد نستخدم تعبير الساميين وتعبير الحاميين فى سياق الأحاديث نظرا لشيوعهما ، ولا ضير فى هذا ما دمنا نتبين حقيقة الأمر فيهما ، وحيث دلت الشواهد التاريخية على أنه لا وجودلسلالة بشرية أو لغوية لم تختلط بغيرها قط وأن اختلاط السلالات بعضها ببعض قد يؤدى أحيانا إلى تجديد حيويتها وثراء حضارتها ، وذلك على شريطة ألا تطغى العناصر الدخيلة على العناصر الأصيلة فيها ، ومع تقدير أن المتشابهات فى قواعد اللغتين العربية والمصرية القديمة لا يمكن أن تكون قد نقلت باتصالات عارضة شأنها بعض المفردات اللفظية ، وإنما يدل تماثلها مع بعضها البعض على وحدة الأصول بينها ولو كانت أصولاً بعيدة سحيقة .

عبد العزيز صالح
عضو المجمع

★★★

من المراجع :

(١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص ١٥ - ٢٢ ، ٢٦ - ٢٨
cf.R. Weill, Recheches sur la Ire Dynastie et les temps Prepharaoniues, II, 1961 283., W. Vycicl, in Kush, 1959,27 f, T.W. Thacker, the Relationship of Semltic and Egyptian Verbal Systems, 1954, Calice, Princples of Egypto-Semitic Word Comparison, 1934, A. Ember, Ember, Egypto-Semitic Studles, 1930. Among older authorities, see Benfey, Hommel, de Morgan, Brugsch, Petrie, Kamal, Lacau, Erman, Sethe, Albright, eic.

(٢) انظر : عبد الحليم النجار : فى اللهجات العربية وأصول اختلافها - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - ١٩٥٣ ص ٤٠ ، وخليل يحيى نامى : من اللهجات اليمنية الحديثة - المرجع نفسه ص (١٠٧) .